

223566 - هل هناك علاقة للحافظ ابن حجر بالصوفية ؟

السؤال

ذُكر في مقدمة فتح الباري أن ابن حجر العسقلاني درّس في مدرسة صوفية ، وذكرت مصادر أخرى أنه كان ينتمي إلى إحدى الطرق الصوفية ، فهل كان صوفياً حقاً ، وما مدى صحة هذه المعلومة ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً :

بعض المصطلحات تحمل في معانيها حقاً وباطلاً ، فلا ينبغي أن نسارع إلى الإنكار على أصحابها إلا بعد الاستفصال عن مقصدهم منها هل هو المعنى الحق ؟ أم الباطل ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به ، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره ... "

انتهى من " مجموع الفتاوى " (12 / 114) .

ومن هذه الألفاظ التصوف ؛ فأحياناً يطلق التصوف والصوفية ويراد بها الزهد والإعراض عن الدنيا ، وملزمة ذكر الله تعالى ، كما كان حال الزهاد من السلف الصالح الذين ينسبون إلى التصوف ، وإن وجدت عندهم بعض المخالفات اليسيرة فهي مغمورة بجانب ما أصابوا فيه الحق . وكثيراً ما يستعمل التصوف والصوفية ويراد بها هذه الطرق البدعية التي نراها في زمننا ، وما فيها من منكرات كالرقص والغناء والشعوذة ، وبعض الاعتقادات الكفرية والشركية كالحلول والاتحاد وعبادة القبور والتوسل بالأموات ونحو هذا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

" والتحقيق فيه - أي في التصوف - : أنه مشتمل على الممدوح والمذموم ، كغيره من الطرق ، وأن المذموم منه قد يكون اجتهداً ، وقد لا يكون ، وأنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في " الرأي " فإنه قد ذم الرأي من العلماء والعباد طوائف كثيرة ، و" القاعدة " التي قدمتها تجمع ذلك كله ، وفي المتسمين بذلك من أولياء الله وصفوته وخيار عباده : ما لا يحصى عده . كما في أهل " الرأي " من أهل العلم والإيمان من لا يحصى عدده إلا الله . والله سبحانه أعلم " .

انتهى من "مجموع الفتاوى" (10 / 370) .

ثانيا :

أكثر أهل العلم الذين اشتهر علمهم وفضلهم : إذا ثبت عن بعضهم ثناء على بعض الصوفية ، أو مخالطته لهم ، فالمقصود بهم النوع الأول وليس أولئك الصوفية المتلبسين بالبدع والشركيات .

وهذا هو الظاهر من حال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ، وهو اللائق بالمعروف من حياته وسيرته ، فقد كان محبا للصالحين ، مبغضا منكرا على المبتدعة الضالين .

قال السخاوي رحمه الله تعالى :

" وكذا كان يجهر بالإنكار على ابن عربي ومن نحا نحوه ... " .

انتهى من " الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر " (3 / 1046 - 1047) .

وقال السخاوي أيضا :

" ومع وفور علمه - يعني شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني - وعدم سرعة غضبه ، فكان سريع الغضب في الله ورسوله ... إلى أن قال: واتفق كما سمعته منه مراراً أنه جرى بينه وبين بعض المحبين لابن عربي منازعة كثيرة في أمر ابن عربي ، أدت إلى أن نال شيخنا من ابن عربي لسوء مقالته ، فلم يسهل بالرجل المنازع له في أمره ، وهدهد بأن يغري به الشيخ صفاء الذي كان الظاهر برقوق يعتقد ، ليذكر للسلطان أن جماعة بمصر منهم فلان يذكرون الصالحين بالسوء ونحو ذلك ، فقال له شيخنا: ما للسلطان في هذا مدخل ، لكن تعال نتباهل ؛ فقلما تباهل اثنان ، فكان أحدهما كاذباً إلا وأصيب ، فأجاب لذلك ، وعلمه شيخنا أن يقول: اللهم إن كان ابن عربي على ضلال ، فالعني بلعنتك ، فقال ذلك .

وقال شيخنا: اللهم إن كان ابن عربي على هدى فالعني بلعنتك ، وافترقا .

قال: وكان المعاند يسكن الروضة ، فاستضافه شخص من أبناء الجند جميل الصورة ، ثم بدا له أن يتركهم ، وخرج في أول الليل مصمماً على عدم المبيت ، فخرجوا يشيعونه إلى الشختور ، فلما رجع أحس بشيء مرّ على رجله ، فقال لأصحابه: مرّ على رجلي شيء ناعم فانظروا ، فنظروا فلم يروا شيئاً . وما رجع إلى منزله إلا وقد عمي ، وما أصبح إلا ميتاً .

وكان ذلك في ذي القعدة سنة سبع وتسعين (وسبع مئة)، وكانت المباهلة في رمضان منها . وكان شيخنا عند وقوع المباهلة عرّف من حضر أن من كان مبطلاً في المباهلة لا تمضي عليه سنة " انتهى من " الجواهر والدرر " (3/1001-1002) .

وقد احتوت مؤلفاته كفتح الباري ، مواضع ينكر فيها على بعض منكرات الطرق الصوفية .

قال الحافظ ابن حجر "رحمه الله" نقلاً عن القرطبي "رحمه الله" : " وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير ، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقيح بقوم منهم ، إلى أن جعلوها من باب القرب ، وصالح الأعمال ، وأن ذلك يثمر سني الأحوال ، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة ، وقول أهل المخرفة ، والله المستعان " .

قال ابن حجر رحمه الله تعليقا على ذلك : " وينبغي أن يعكس مرادهم ، ويقرأ : (سَيَّءٌ ..) " انتهى من " فتح الباري " (2/442) .

وقال السخاوي في حديث : لبس الخرقة الصوفية ، وكون الحسن البصري لبسها من علي :
 " قال ابن دحية وابن الصلاح: إنه باطل ، وكذا قال شيخنا - أي الحافظ ابن حجر - : إنه ليس في شيء من طرقها ما يثبت ،
 ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية ،
 لأحد من أصحابه ، ولا أمر أحداً من أصحابه بفعل ذلك ، وكل ما يروى في ذلك صريحاً فباطل .
 قال: ثم إن من الكذب المفترى قول من قال: إن علياً ألبس الخرقة الحسن البصري ؛ فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من
 علي سماعاً ، فضلاً عن أن يلبسه الخرقة ".
 انتهى من " المقاصد الحسنة " ، للسخاوي (1/176) .

ثالثاً :

الأصل هجر أهل البدع من الصوفية وغيرهم لكن هذا الهجر ليس على إطلاقه بل مضبوط بوجود المصلحة الشرعية من الهجر
 وغياب المفسدة .
 قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :
 " فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التي هي ظلم وذنوب وإثم وفساد ، وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهي
 عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا ، وليقوى الإيمان والعمل الصالح عند أهله . فإن عقوبة الظالم تمنع النفوس
 عن ظلمه ، وتحضها على فعل ضد ظلمه : من الإيمان والسنة ونحو ذلك . فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد ؛
 بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأموراً بها ، كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك: أنهم لم يكونوا
 يقوون بالجهمية . فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة ، وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن
 الضعيف ، ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي . وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة ، فلو ترك رواية الحديث عنهم لا
 ندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم ...
 فإن أقواماً جعلوا ذلك عاماً ، فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به ، فلا يجب ولا يستحب ، وربما تركوا به واجبات
 أو مستحبات وفعلوا به محرمات . وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية ، فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية ؛ بل
 تركوها ترك المعرض ؛ لا ترك المنتهي الكاره ، أو وقعوا فيها ، وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره ، ولا ينهاون عنها غيرهم ، ولا
 يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها ، فيكونون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجاباً أو استحباباً ،
 فهم بين فعل المنكر أو ترك النهي عنه ، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به . فهذا هذا . ودين الله وسط بين الغالي فيه
 والجافي عنه . والله سبحانه أعلم " انتهى من " مجموع الفتاوى " (28 / 212 - 213) .

والذي يظهر ، والله أعلم ، أن ابن حجر رحمه الله في تدريسه في بعض المدارس التي كان فيها تصوف أو بعض الصوفية ،
 كان يزن بذلك الميزان ؛ ميزان تحقيق المصلحة الشرعية ، فقد كانت دروسه رحمه الله تعالى في نشر السنة وقراءة كتب
 الحديث ، فيكون نشره للحديث والسنة ، وتعليم الناس العلم ، ولو في مدرسة للصوفية ، نوعاً من الدعوة ، وتحصيلاً لخير ،
 فواته أعظم من هجران تلك المدارس ، أو الربط .

وقد حكى تلميذه السخاوي ما كان عليه رحمه الله تعالى من الدعوة للسنة ؛ قال رحمه الله تعالى :
 " وأما اتباعه للسنة في جميع أحواله ، فشيء لا يسأل عنه ، لأنها عنه تؤخذ ، ومنه تعرف ، ويحرص بلسانه وقلمه على جذب
 الناس إليها ، وتحذيرهم من مخالفتها ، حتى كان يتأثر من تأخير الفطر وتقديم السحور ... " انتهى من " الجواهر والدرر " (3 /
 1049) .

رابعاً :

يوجد من الأعلام المشهورين من تتشابه أسمائهم فعندما ينسب إلى أحدهم قول أو موقف قد يخطئ القارئ فيظن أنه الشخص
 الآخر ، فيجب الاعتناء بهذا والانتباه له .
 ومن هذا اسم " ابن حجر " فقد اشتهر به عالمان ؛ الأول هو الحافظ ابن حجر العسقلاني ، والثاني هو ابن حجر الهيتمي الفقيه
 الشافعي ، وهو متأخر عن الحافظ ابن حجر العسقلاني ، صاحب فتح الباري .
 فأحياناً لا تذكر النسبة فيجهل المقصود .

وما ذكر في السؤال : (وذكرت مصادر أخرى أنه كان ينتمي إلى إحدى الطرق الصوفية) ، قد يكون المقصود به الفقيه ابن
 حجر الهيتمي ، فهو الذي اشتهر بدفاعه عن الصوفية ومخالطته لأصحابها ، أما ابن حجر العسقلاني فلا يعرف انه انتسب إلى
 طريقة من الطرق الصوفية .

خاصة وأن شمس الدين السخاوي رحمه الله تعالى ذكر سيرة شيخه الحافظ ابن حجر الشخصية والعلمية ، وقد طبعت في
 ثلاث مجلدات باسم " الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر " ، ولا يظهر منها ما يدل على انتماء الحافظ لأي طريق
 من طرق الصوفية .
 والله أعلم .